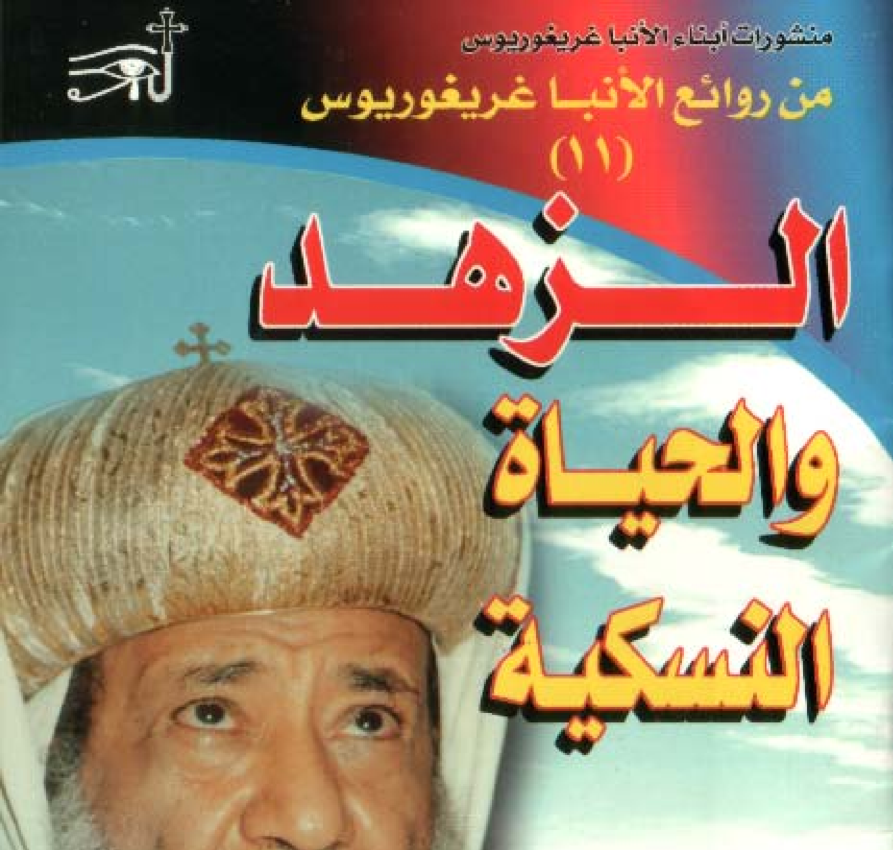


منشورات أبناء الأنبا غريغوريوس

من روائع الأنبا غريغوريوس

(١١)

الزهد والحياة النسكية

للمتنيح

الأنبا غريغوريوس

أسقف عام

للدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية

والبحث العلمي

الكتاب : الزهد والحياة النسكية جزء لا يتجزأ من الحياة الرعائية.

المؤلف: المتنيح الأنبا غريغوريوس.

إعداد : الإكليريكى منير عطية.

الناشر : مكتبة المتنيح الأنبا غريغوريوس ـ دير الأنبا رويس بالعباسية مصر ت: ٦٨٢٤٩٦٢ ـ ٤٨٨٢٥٢٢.

الغلاف : الفنان عادل لبيب.

المطبعة : شركة الطباعة المصرية ـ العبور ت: ٦١٠٠٥٨٩.

الجمع : شركة فاين للطباعة والتوريدات ت: ٤٨٢٠٩٠٣.

رقم الإيداع بدار الكتب : ٤٥٦٣/ ٢٠٠٤

الزهد والحياة النسكية
جزء لا يتجزأ من الحياة الرعائية (١)

كلمة النسك فى اللغة العربية تعنى التعبد، والتزهد، والتقشف، ومنها النساك وهم العباد والزهاد.

وأما فى اللغات الأخرى فمشتقة من الكلمة اليونانية ἄσκησις وتعنى فى الأصل اللغوى: تدريب، تمرين، تهذيب، أو منهج للحياة، أو مهنة. ومنها صفة الفاعل ἀσκητής وهو من يمارس فنا أو مهنة أو حرفة ولا سيما الألعاب الرياضية، أو البطولة الرياضية التى يتوصل إليها بالتدريب، وأما النسك أو الحياة النسكية فى الاصطلاح الكنسى أو الدينى، فهى هذا النوع من السلوك الذى يمارس صاحبه الزهد والتقشف والحرمان وشظف الحياة، من أجل الله وابتغاء لوجهه الكريم، وتوسلا لعبادة خالصة وانصرافا للروحانية فى مقاماتها العالية.

---

(١) نص المحاضرة التى ألقيت فى مؤتمر رابطة الدراسات اللاهوتية بالشرق الأوسط ـ يوم الأربعاء ١٤ فبراير ١٩٦٨م الموافق ٦أمشير ١٦٨٤ش.

والنسك فى هذا المعنى المحدود يتميز به الزهاد القانعون بأبسط مظاهر الحياة المادية، وهم عادة الرهبان ومن إليهم، ممن اتخذوا هذا السلوك طريقا ومنهجا عرفوا به، وعرف عنهم، فصار وكأنه لهم وحدهم. والحق أنهم أهل هذا الطريق، ولكن هناك من غير الرهبان إناسا يصلون فيه إلى درجة أو بضع درجات. أما الرهبان فقد ضربوا فيه بأكثر نصيب، ولا سيما المتقدمين منهم فى الروحانية من المتوحدين، ممن قطعوا فى طريق النسك مراحل بعيدة، فصاروا إلى الروح أقرب منهم إلى الجسد.

ولعل أولي درجات النسك وأبسطها واقربها إلى مستوى الحياة العادية التى يحياها أفاضل الناس فى العالم، هى الامتناع الإرادى عن المحرمات والممنوعات، لا بقهر أو تكلف بل بمحض الرضى والاقتناع القلبى والشعورى.

ومن هذه المرحلة الأولية ينتقل الإنسان متدرجا خطوة خطوة إلى الزهد فى الأمور المباحة، بروح القناعة طورا، وبروح الترفع عن أباطيل الحياة الدنيا طورا آخر، وبروح الطموح إلى حياة أفضل وأرقى وأسمى طورا ثالثا. فمن دون أن يطلب منه

ذلك يشعر وكأن نداء يناديه من أعماق روحه الطامحة إلى السمو الروحانى، إلى أن يقنع بأقل قدر ممكن من الطعام والشراب، بل ومن النوم أيضا، ويتدرج إلى الزهد فى اللباس والمسكن وكل مظاهر الحياة الخارجية، ولا يكاد يحظى إلا قليلا برأى الناس فيه أو نظرتهم إليه.

ولماذا هذا؟ ولماذا الزهد فى أمور مباحة وليست ممنوعة أو غير مشروعة؟

إن الزهد فى الأمور المباحة ينبع من:

أولا - من شعور عميق بأن هذه الأمور وإن كانت مباحة لكنها زائلة فانية غير باقية، وهو امتداد لفكرة الزهد فى العالم كله باعتباره فانيا، أو على حد تعبير الوحى «وهيئة هذا العالم تزول» (١) وقوله « والعالم وشهوته يزولان » (٢) « لأننا لم ندخل العالم بشىء وواضح أننا لانقدر أن نخرج منه بشئ» (٣)

---

(١) كورنثوس الأولى٧ : ٣١ انظر أيضا (يعقوب١ : ١٠)، (٤ : ١٤) .
(٢) رسالة يوحنا الأولى٢ : ١٧ (بطرس الأولى١ : ٢٤)، (٤ : ٧) .
(٣) تيموثيئوس الأولى ٦ : ٧ .

ثانيا ـ من إدراك باطنى بأن هذه الأمور وإن كانت مباحة ومشروعة، لكنها تزيد من تعلق الإنسان بالدنيا وتشبثه بها، وهذا يصرفه عن السعى للحياة الأخرى واهتماماتها.

ثالثا ـ من إحساس داخلى بأن تلك الأمور وإن كانت مباحة ومشروعة، لكنها تعطل الصفاء النفسى وتعوق الامتداد للحياة الفضلى، وتعرقل الطريق السالك إلى مداخل الحياة الروحانية العالية ودروبها الخفية، التى لا تتبين إلا لمن رقت جسومهم ورق أثرها على سلوكهم.

المسيحية والحياة النسكية

الحق أن الدعوة المسيحية لا يمكن فصلها عن الحياة النسكية. فالمسيحية إذا نظرنا إليها من جهة دعوتها العملية السلوكية هى فى صميمها دعوة إلى الحياة النسكية.

هى أولا ـ دعوة إلى التدرب على القناعة فيما يتصل بالطعام والشراب واللباس.

يقول السيد المسيح « لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون، أليست النفس (الحياة)

أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس...ولماذا تهتمون باللباس... فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس فإن هذه كلها تطلبها الأمم... لكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبره». (١) .

ويقول مار بولس الرسول « فإن كان لنا قوت وكسوة فلنكتف بهما » (٢) . ويقول أيضا « كونوا مكتفين بما عندكم، لأنه قال لا أهملك ولا أتركك» (٣) .

الزهد في المسكن :

ودعوة المسيحية إلى الزهد في المسكن تظهر من قول ربنا يسوع المسيح عن نفسه، عندما تقدم إليه كاتب وقال له: يامعلم أتبعك أينما تمضي. فقال له يسوع: للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار. وأما ابن البشر فليس له أين يسند رأسه » (٤) .

---

(١) إنجيل القديس متى (٦ : ٢٥ـ ٣٣)، (لوقا١٢ : ٢٢ ، ٢٣)، (فيلبي٤ : ٦)، (بطرس الأولى٥ : ٧) .
(٢) تيموثيئوس الأولى (٦ : ٨) .
(٣) العبرانيين (١٣ : ٥) .
(٤) متى(٨ : ٢٠)، (لوقا ٩ : ٥٧ ، ٥٨) .

الزهد فى المظاهر:

كما تتضح دعوتها إلى احتقار أباطيل العالم، فى قول مار يوحنا الرسول: « لا تحبوا العالم ولا ما فى العالم إن كان أحد يحب العالم فليس فيه محبة الآب، لأن كل مافى العالم شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة. وليس ذلك من الآب بل من العالم. والعالم وشهوته يزولان وأما من يعمل مشيئة الله فإنه يثبت إلى الأبد». (١)

ولابد أن يكون المقصود من قول الكتاب « لا تحبوا العالم » لا أن ينهانا عن محبة الكون أو الطبيعة من سماء وأرض وبحار وهواء ونبات. حاشا. إنما « العالم » فى هذه الوصية «لا تحبوا العالم» هو أباطيل العالم أو شهوات العالم خاصة وقد عقّب مار يوحنا الرسول على ذلك بقوله « لأن كل ما فى العالم شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة ».

وتبلغ هذه النظرة الزاهدة إلى الحياة المادية ذروتها فى تعبير مار بولس الرسول، إذ يقول «فأقول هذا أيها الإخوة إن الزمان

(١) رسالة مار يوحنا الرسول الأولى (٢: ١٥ ـ ١٧).

قصير، فبقى أن يكون الذين لهم نساء كأنهم لا نساء لهم، والباكون كأنهم لا يبكون، والفرحون كأنهم لا يفرحون، والمشترون كأنهم لا يملكون، والمستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه لأن هيئة هذا العالم فى زوال » (١) .

الزهد فى النظرة إلى الزواج:

ومع أن الزواج طاهر ومقدس وخير مباح، لكن الزهد المسيحى لم يتوقف عن أن ينفذ إلى هذه الدائرة. وهذا منطقى لأنه إن كان يمكن للمسيحى أن يزهد فى الطعام والشراب واللباس والمسكن، وهى ضرورات الحياة الأساسية التى لابد منها، فكيف لا يزهد فى الزواج وهو ليس فى نفس الضرورة، أو على الأقل ليس فى نفس الدرجة من الأهمية لقيام الحياة الإنسانية.

إن المسيحية بنظرتها الزاهدة إلى الزواج، تتجه إلى رد الإنسان إلى صورته الأولية لأن الله خلق آدم أولا بغير حواء ثم عاد فخلق له حواء لتكون له معينا (٢) . وكان يمكنه تعالى أن

(١) كورنثوس الأولى ٧ : ٢٩ ـ ٣١.
(٢) التكوين ٢ : ١٨.

يخلق حواء مع آدم فى نفس لحظه الخلق، لكنه لم يفعل ذلك، ثم إذا كان قد خلق له حواء لتكون معينته، فليس وجود المعين يقتضى حتما أن يكون بينهما زواج بالمعنى المعروف.

قال السيد المسيح « لأن من الخصيان من خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السماوات، فمن استطاع أن يحتمل فليحتمل» (١) مبينا أنه يمكن للإنسان أن يزهد فى الزواج وهو قادر عليه. وهو مع اكتمال نموه الجسدانى لكنه يحيا وكأنه خصى من أجل ملكوت الله، ومعناه أنه يضبط نفسه بإرادته ويشكم رغبة الجنس من أجل حياة أفضل، هذا زهد يقبل الإنسان عليه برضى وبغير كره « من أجل السرور الموضوع أمامه » (٢) من أجل حياة السمو الروحانى فى ملكوت الله، خاصة وأن المسيحية تبين لنا أن الحياة الزوجية فترة قصيرة عارضة فى رحلة الحياة الطويلة إلى اللانهائية « لأنهم فى القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون ولكن يكونون كملائكة الله فى السموات» (٣). ولهذا فمن يقدر أن

---

(١) انجيل القديس متى(١٩ : ١٢) ،(كورنثوس الأولى ٩ : ٥ ، ١٥).
(٢) العبرانيين ١٢ : ٢.
(٣) متى ٢٢ : ٣٠.

يحتمل برضى تعب العزوبة أو البتولية من أجل الله، إنما يضحى بفترة قصيرة عارضة إذا قيست بالأبدية التى لا نهاية لها، ولهذه التضحية جزاؤها المبارك، فما دام الزواج حادثا فى حياة الإنسان وقد جاء فى زمن متأخر نوعا ما عن خلقة الإنسان الأول آدم، وما دام الإنسان لا يتهيأ للزواج إلا فى فترة معينة من حياته، يكون فيها اكتمال نموه الجسمانى والذهنى والعاطفى، ومادام الزواج فى حياة الإنسان لا يستمر غير بضع سنوات، وينتهى على الرغم منه بالموت ولا يستمر بعد الموت. فلماذا لا يزهد الإنسان فى الزواج والعلاقات الزوجية، طالما أنها لفترة قصيرة فإنه لا تستغرق أكثر من بضع سنوات، وهى لذلك لا تقاس بشئ إلى جانب الأبدية اللانهائية، يقول مار بولس الرسول «حسن للرجل أن لا يمس إمرأة، ولكن لسبب الزنا ليكن لكل واحد إمرأته، وليكن لكل واحدة رجلها.. فإنى أود لو يكون جميع الناس مثلى (بتوليين - غير متزوجين)، لكن كل واحد له من الله موهبة تخصه، فبعضهم هكذا. وبعضهم هكذا. وأقول لغير المتزوجين وللأرامل أنه حسن لهم أن يبقوا على هذا الحال (غير متزوجين) (١) كما أنا، فإن لم يضبطوا أنفسهم

---

(١) قارن (كورنثوس الأولى٧ : ٢٦).

فليتزوجوا (١)، «إنى أريد أن تكونوا بلا هم، فإن غير المتزوج يهتم فيما للرب كيف يرضى الرب. وأما المتزوج فيهتم فيما للعالم كيف يرضى إمرأته» (٢) فهو منقسم. «والمرأة غير المتزوجة والعذراء تهتم فيما للرب لتكون مقدسة فى الجسد وفى الروح. وأما المتزوجة فتهتم فيما للعالم كيف ترضى رجلها» (٣).

وهكذا علم الرسول، تبعا لتعليم معلمه وسيده، أن البتولية حالة أفضل، وأقرب إلى الكمال وهى موهبة للممتازين من الناس، بها يكون الإنسان مقدسا لله بالروح والجسد، وقد جعل إهتمامه كله فى الله وحده، انقطع لعبادته ولخدمته وصار له مكرسا بالروح والجسد، لا تكريسا جزئيا بل تكريسا تاما وكليا، وعلم الرسول أيضا تبعا لتعليم سيده أن الزواج مقدسا (٤)، لكنه طريق أقل درجة فى السمو الروحانى (٥)، وهو لغير القادرين على ضبط نفوسهم (٦) عن أن يسيروا فى الطريق الأفضل

(١) قارن (تيموثيئوس الأولى٥: ١٤). (٢) ١.كو٧: ٣٢، ٣٣.
(٣) (كورنثوس الأولى (٧: ١، ٢، ٨، ٩، ٢٦ـ ٣٤).
(٤) العبرانيين١٣: ٤ وكورنثوس الأولى٧: ١٤.
(٥) إذن من زوج فحسنا يفعل ومن لا يتزوج يفعل أحسن(كورنثوس الأولى٧: ٣٨) انظر أيضا كورنثوس الأولى٧: ١، ٨، ٢٦، ٢٧، ٢٨ـ ٣٤، ٣٥، ٣٧، ٤٠).
(٦) ولكن بسبب الزنى ليكن لكل واحد إمرأته وليكن لكل إمرأة رجلها، وإن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا.(كورنثوس الأولى٧: ٢، ٩، ٣٧).

والأكمل وهو طريق المتبتلين لله، الذين لا يتزوجون من أجل الله، الذين يسلكون كخصيان (١)، وإن كانوا ليسوا خصيانا بالمعنى المادى للكلمة - وذلك من أجل ملكوت الله، الذين يحتملون هذا الزهد وهذا النسك من أجل الله ومن أجل ملكوته.

الزهد فى العلم:

وتعليمنا المسيحى يدعونا إلى الزهد فى العلم البشرى والمعرفة الإنسانية، إذا كانت هذه المعرفة وذلك العلم بقصد الزهو والفخر والخيلاء والتعالى على الآخرين، أو كان العلم مصحوبا بروح هدامة مدمرة للقيم الروحية، أو كان أداة يستغلها بعض الناس لتغذية الإلحاد والكفر والمبادئ المادية والنظريات الإجتماعية الضارة.

وبهذا المعنى صار العلماء والحكماء فى نظر المسيحية أغبياء، «قال الجاهل فى قلبه ليس إله» (٢). ولهذا قالت المسيحية أن الجاهل خير من حكيم حكمته هدامة. «وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء» (٣).

---

(١) إشعياء ٥٦ : ٣، متى ١٩ : ١٢.
(٢) (مزمور١٣(١٤) : ١)، (مزمور٩ (١٠) : ٤)، (مزمور٥٢(٥٣) : ١).
(٣) رومية ١ : ٢٢.

يقول مار بولس الرسول «اختار الله جهال العالم (وهم الرسل ومن إليهم) ليخزى الحكماء (فى نظر أنفسهم)» (١) ويقول «إن كان أحد يظن أنه حكيم بينكم فى هذا الدهر فليصر جاهلا (بذلك النوع من الحكمة الهدامة) لكى يصير حكيما (بالمعنى الحقيقى) لأن حكمة هذا العالم هى جهالة عند الله. لأنه مكتوب الآخذ الحكماء بمكرهم وأيضا يعلم الرب أفكار الحكماء (فى نظر أنفسهم) أنها باطلة» (٢) ويقول أيضا «تنبهوا لئلا يغريكم أحد بالفلسفة وبغرور باطل» (٣).

ومن أقوال الرسول بولس أيضا «إن المسيح لم يرسلنى لأعمد بل لأبشر لا بحكمة كلام لئلا يتعطل صليب المسيح... لأنه مكتوب سأبيد حكمة الحكماء وأرفض فهم الفهماء» أين الحكيم (الحقيقى) أين الكاتب أين مباحث هذا الدهر. ألم يجهل الله حكمة هذا العالم، لأنه إذ كان العالم فى حكمة الله لم يعرف الله بالحكمة(البشرية)، استحسن الله أن يخلص المؤمنين بجهالة

(١) كورنثوس الأولى ١ : ٢٧ .
(٢) كورنثوس الأولى ٣ : ١٨ـ ٢٠ .
(٣) كولوسى ٢ : ٨ .

الكرازة، لأن اليهود يسألون آية واليونانيين يطلبون حكمة. ولكننا نحن نكرز بالمسيح مصلوبا، لليهود عثرة ولليونانيين جهالة، وأما للمدعوين يهودا ويونانيين فبالمسيح قوة الله وحكمة الله. لأن جهالة الله أحكم من الناس وضعف الله أقوى من الناس» (١).

وفى مجال المقارنة بين الحكمة الإنسانية الفاشلة والحكمة الإلهية، يقول الرسول «وأنا لما أتيتكم أيها الأخوة (الكورنثيون)، لم آت ببراعة الكلام أو الحكمة (البشرية) مبشرا لكم بشهادة الله، لأنى حكمت بألا أعرف بينكم شيئا إلا يسوع المسيح وإياه مصلوبا.. ولم يكن كلامى ولا كرازتى بكلام بليغ من حكمة بشرية، بل ببرهان الروح والقوة لكى لا يكون إيمانكم عن حكمة الناس (الفاشلة) بل عن قوة الله» (٢).

على أن الزهد فى العلم ليس معناه أن يكف الانسان المسيحي عن طلب المعرفة، «النفس من دون علم غير صالحة» (٣) وقد قال المخلص «فتشوا الكتب» (٤) وقال

---

(١) كورنثوس الأولى ١ : ١٧ـ ٢٥.
(٢) كورنثوس الأولى ٢ : ١ـ٥.
(٣) سفر الأمثال ١٩ : ٢.
(٤) يوحنا ٥ : ٣٩.

الرسـول بـولس «امتحنـوا كل شئ تمسـكوا بما هـو حسـن» (١) إنما معناه أن يزهد فى تلك المعرفة البشرية الناقصة ولايقنع بها، ظانا أن فيها الغنى والكفاية ولا يتوصل بها إلى هدم المعتقدات المستقرة والقيم الروحية والأبدية، ولا يغتر بهذه المعرفة ظانا أنه بها عرف كل شيء، إنما المسيحى ينظر إلى المعرفة البشرية على أنها وإن كانت مطلوبة، لكنها معرفة ناقصة ثم هى معرفة متغيرة وغير ثابتة، فقد يقول علماء العالم اليوم شيئا يقولون بغيره فى الغد، وقد ينادون الآن بنظرية يهدمونها بأيديهم هم أو غيرهم فى وقت آخر. ثم إن المعرفة البشرية معرفة زائلة لأنها تعتمد على أدوات زائلة كالحواس مثلاً، والحواس تخدعنا أحيانا فضلا عن أنها زائلة، قد تنفعنا لهذا الدهر ولكنها لا تنفعنا للدهر الآتى، وهناك نوع من المعارف يفيدنا هنا فى هذا العالم، ولكنه لا قيمة له فى العالم الآخر، لهذا يقول الرسول «والعالم فسيبطل لأننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ، ولكن متى جاء الكامل فحينئذ يبطل ما هو بعض. لما كنت طفلا كطفل كنت أتكلم وكطفل كنت أفطن وكطفل كنت أفتكر. ولكن لماصرت رجلا أبطلت ما للطفل. فإننا

(١) تسالونيكى الأولى ٥ : ٢١.

ننظر الآن في مرآة في لغز لكن حينئذ وجها لوجه. الآن أعرف بعض المعرفة لكن حينئذ سأعرف كما عرفت»(١)٠

الزهد في المال:

لعل هذه النظرة الزاهدة إلى المال تتمثل في أوضح وأكمل صورة لها في سيدنا ومخلصنا يسوع المسيح، الذى شاء أن يولد في أدنى وأحط صورة للفقر يمكن أن يتصورها إنسان. وليس يمكن لإبن ما مهما كان والداه فقيرين، ولو كان شحاذا لا يملك شرو نقير يولد في نفس الظروف البائسة التي ولد فيها المسيح وهو رب المجد كله. لم تجد العذراء مكانا تلده فيه، فولدته واضجعته في مذود البقر. هل هناك طفل آخر مهما كان فقيراً يمكن أن يولد في صورة للفقر أبأس من هذه الصورة؟

ولو كان المسيح يشاء أن يولد في ظروف أفضل لكان العالم بأسره في خدمته.

وسار المسيح على هذا النهج، الفقير المعدم في كل حياته وإلى يوم صعوده إلى السماء.

لم تكن له قنية ولا كان له مال. شاء أن يعيش على صدقات المحسنين وهو مغنى الكل، كان هو وتلاميذه لهم صندوق ومن

(١) كورنثوس الأولى ١٣: ٨ ـ ١٢.

الصندوق كانوا ينفقون على احتياجاتهم الضرورية، لم يستغل قدرة لاهوته وسلطانه على صنع المعجزات ليكون غنيا، ولكن شاء لنفسه أن يظل فقيرا، حتى يكون بالفعل قد شارك البشرية فى كل بؤسها وفقرها، وحتى لا يخجل الفقير من فقره والبائس من بؤسه حين يعلم أن المسيح عاش معه فى أحط صورة للفقر.

والصندوق الذى كانوا ينفقون منه على احتياجاتهم الضرورية، لم يحمله المسيح ولا حمله التلميذ الذى كان يسوع يحبه. وإنما حمله يهوذا الذى أحب الظلم من أجل أجرة، قال يهوذا مرة يِنتقِد ما فعلته مريم التى سكبت الطيب على قدمى المخلص، لِم لَمْ يبع الطيب بثلاث مائة دينار ويدفع للمساكين، وقال يوحنا الرسول عنه «وإنما قال هذا ليس لأنه كان يبالى بالفقراء، بل لأنه كان سارقا وكان الصندوق عنده وكان يحمل ما يلقى فيه» (١). والعجيب الغريب أن السيد المسيح وهو يعلم من أمر يهوذا كل شيء لم ينتزع الصندوق منه ولا ورد فى الكتاب ولو مرة واحدة أن المسيح ناقشه في هذا الأمر أو وبخه عليه أو عاتبه فيه أو وجه إليه حتى مجرد سؤال. إن إهمال المسيح هذا الأمر بهذه الصورة يدل على احتقار عجيب للمال.

---

(١) يوحنا ١٢: ٥، ٦.

ومن آيات احتقار المسيح للمال مسلكه إزاء الذين طالبوه بالجباية. ففى كفر ناحوم دنا الذين يجبون الدرهمين إلى بطرس وقالوا له: «أما يؤدى معلمكم الدرهمين قال: بلى. فلما دخل (بطرس) البيت سبقه يسوع قائلا: ما تظن يا سمعان. ممن يأخذ ملوك الأرض الخراج أو الجزية، أمن بنيهم أم من الأجانب. قال له بطرس «من الأجانب» قال له يسوع «والبنون إذن أحرار، ولكن لئلا نعثرهم امض إلى البحر وألق صنارة والسمكة التى تطلع أولا خذها، ومتى فتحت فاها تجد استارا فخذه وأعطهم عنى وعنك» (١) لقد دفع المسيح الجباية أو الجزية وهو يعلم أنه من حقه كمواطن أن لا يدفع الجزية لأنها للأجانب. دفع الجباية أو الجزية وهو فقير معدم لا يملك أن يدفع، ولكنه لم يرد أن يدخل فى نقاش أو جدل فى هذا الأمر، ولم يرد أن يحتل هذا الأمر شيئا من الإهتمام، وهذا دليل آخر على احتقاره الشديد للمال. «من يطلب مالا فليأخذه».

هذه النظرة للمال هى التى طبعت المؤمنين بالمسيح فى العصر الرسولى «وكانوا يبيعون أملاكهم وأمتعتهم ويوزعونها

---

(١) متى ١٧: ٢٣ ـ ٢٦.

على الجميع على حسب حاجة كل واحد» (١) «فإنه لم يكن فيهم محتاج، لأن كل الذين كانوا يملكون ضياعا أو بيوتا كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويلقونها عند أقدام الرسل» (٢)، إن تعبير «**يلقونها عند أقدام الرسل**» تعبير مؤثر وجميل ويضع المال في موضعه الصحيح «عند أقدام الرسل» وهو تعبير يدل على احتقار المال والزهد في المال. وهذه هي الاشتراكية المسيحية. إن المسيحي يزهد في المال عن رضى ولا يضعه في قلبه، ولكن عند أقدام الرسل يطرحه أي يبذله من أجل الله وفي خدمة الناس.

---

(١) أعمال الرسل ٢ : ٤٥.
(٢) أعمال ٤ : ٣٤، ٣٥.

النسك بالنسبة للكهنة ورجال الدين

إذا كانت المسيحية ـ من الوجهة السلوكية ـ هى فى صميمها، دعوة إلى الحياة النسكية فى شئون الطعام والشراب واللباس والمسكن وفى المظاهر الخارجية، بل وفى نظرتها إلى الزواج وإلى العلم وإلى المال، واذا كانت الحياة النسكية هى دعوة المسيحية إلى كل المسيحيين، بل إلى جميع الناس، فإن الكهنة ورجال الدين هم أولى من غيرهم بهذه الحياة، لأنهم هم أولا مسيحيون، ولأنهم هم دعاة المسيحية وبالتالى دعاة الحياة النسكية، فرجال الدين ينظرون قبل غيرهم إلى الحياة نظرة أعمق، فيها احتقار واضح لأباطيل العالم، ويقنعون بضرورات الحياة من طعام وشراب ولباس ومسكن، ولا يحفلون بالمظاهر الخارجية ولا يتكلمون على المال، وقد يؤثرون التبتل كلفا بالعفة الكاملة، وانصرافا تاما لعبادة الله وخدمته بغير عائق أو مانع. فإذا تزوجوا فهم قادرون على ضبط نفوسهم. ومنهم من إذا دعى إلى الكهنوت وخدمة الله عف عن العلاقات الزوجية، وصارت له زوجة أختا تعاونه فى الخدمة. وعلى هذا القياس سار كثيرون فى كل العصور. وقد عبر عنه مار بطرس الرسول

بقوله لمخلصنا وفادينا يسوع المسيح «ها نحن قد تركنا كل شئ وتبعناك فماذا يكون لنا»، فقال لهم يسوع «الحق أقول لكم أنكم أنتم الذين تبعتمونى فى التجديد، متى جلس ابن الإنسان على كرسى مجده تجلسون أنتم أيضا، على اثنى عشر كرسيا تدينون أسباط إسرائيل الإثنى عشر، وليس أحد ترك بيتا أو إخوة أو أخوات أو أبا أو أما أو إمرأة أو أولادا أو حقولا من أجل اسمى ولأجل الإنجيل وملكوت الله، إلا ويأخذ مائة ضعف (أو أضعافا كثيرة) الآن فى هذا الزمان، بيوتا وإخوة وأخوات وأمهات وأولادا وحقولا مع اضطهادات. وفى الدهر الآتى الحياة الأبدية. (١)».

هنا يعبر مار بطرس الرسول عما يتركه من تبع المسيح فى خدمته وخدمة الانجيل وملكوت الله، من المقتنيات ومن علاقات القرابة الجسدية التى تربطه بالأقارب، من الأب والأم والإخوه والأخوات والزوجة، ولكن المسيح فادينا وعد الذين يتركون هذه الأمور من أجل اسمه، ومن أجل الإنجيل والملكوت، بأن يحصلوا فى هذا الدهر على أضعاف ما تركوا أو

(١) (مرقس١٠ : ٢٨_ ٣٠) و(لوقا ١٨ : ٢٨_ ٣٠) و(متى١٩ : ٢٧_ ٢٩).

فقدوا، وفى الدهر الآتى على الحياة الأبدية. ومما يلفت النظر أنه وعد بمائة ضعف أو بأضعاف كثيرة فى هذا الدهر عن الحقول والأم والإخوة والأخوات، لكنه لم يشر إلى عوض فيما يتصل بالأب وفيما يتصل بالمرأة أو الزوجة، وهذا لتوكيد أن الخادم يجد بدل أم واحدة أو أخت واحدة نساء كثيرات يصرن له كأمهات أو أخوات، وبدل أخ واحد يجد أخوة من المؤمنين كثيرين. أما عن الأب فقد صار له الآب السماوى هو متكله ومعتمده وملجأه، وصار لا يعرف له أبا آخر سواه، وهذا يوافق كلمات الرب إلى تلاميذه ورسله القديسين «ولا تدعوا لكم أبا على الأرض فإن أباكم واحد وهو الذى فى السماوات» (١).

وأما عن الزوجة فلا يجد عوضا أو بدلا، لأنه قد ارتفع فوق العلاقات الزوجية وسما فوق الجنس، ولم تعد إمرأته له غير أخت، وهذا ما فعله الرسل الذين كانوا قبل الدعوة الرسولية متزوجين، أنهم تركوا العلاقات الزوجية وصارت الزوجة لهم أختا بكل ما يحمل اللفظ من معنى. ولقد أشار إلى هذا المعنى مار بولس الرسول عندما قال «أما لنا سلطان أن نجول بإمرأة أخت كسائر الرسل وإخوة الرب وكيفا» (٢).

(١) متى ٢٣: ٩.

(٢) كورنثوس الأولى ٩: ٥.

وهذا يفيد أن الرسل المتزوجين تركوا العلاقات الزواجية، وصارت لهم زوجاتهم أخوات يجلسن معهم للخدمة.

وبالإجمال فإن الكاهن أو رجل الدين يصير كله لله، عقله وقلبه وإنفعالاته وعواطفه واحساساته ومشاعره كلها لله وفى الله. الله دائما عنده في بؤرة شعوره، وما عدا ذلك ففى هامش الشعور كل شخص أو شيء مالم يعنه فى علاقته بالله وخدمته له، هو تافه باهت لا بريق له عنده ولا إغراء له على قلبه ولا جاذبية له نحوه. الكاهن أو رجل الدين هو حقا رجل دين، بمعنى أنه للدين يحيا ويموت، للدين يجوع ويعطش، للدين ومن أجل الدين يتنفس به وله ومن أجله. هو محرقة كاملة لله وللدين. كله مقدم لله ولعبادته ولخدمته. الفرق بين ذبيحة السلامة وبين المحرقة كبير. كانت ذبيحة السلامة (١) يحرق بعضها لله على المذبح وينال الفقراء والمساكين جزءا منها، وينال الكاهن جزءا منها، وينال صاحب الذبيحة ومقدمها جزءا منها. أما المحرقة فتحرق كلها على مذبح الله لله، ولا يأخذ

(١) اللاويين ٧.

الفقير والمسكين ولا الكاهن ولا مقدم الذبيحة منها شيئا ولا يبقى منها لأحد شيء. كلها لله. هكذا الفرق بين المدني وبين الكاهن أو رجل الدين. المدني يعطي قلبه لله، ولكنه يعطي جزءا من اهتمامه لأسرته ولعمله ولأولاده، وأما رجل الدين فهو كله اكليروس لله، هو كله من نصيب الله. كل اهتمامه في الله وبالله ولله. من هنا فإنه ناسك لله زاهد في كل شيء، بل في كل شخص من أجل الله.

وقد تبلغ هذه الحياة النسكية ذروتها في التجرد التام، من الهوى والشهوة والحرص على الكرامة الشخصية، ومن الغضب للذات ومن أجل الذات. ويصير الكاهن أو رجل الدين حيا في الدنيا من أجل الغرض الواحد والهدف الواحد، سلوكه ينطق قبل أن ينطق لسانه أنه يعيش من أجل واحد، وأن الحاجة هي إلى واحد. هنا تسقط عنه كل رغبة وكل شهوة وكل ميل وكل هوى، وكل تطلع إلى مجد أو إلى شهوة أو إلى صيت حسن، هنا يصل إلى الأمانه التامة وإلى درجة الفناء والبقاء بعد الفناء، وهو ما يصفه الرسول بقوله «وأنا حيّ لا أنا بل إنما المسيح حيّ

فـيَّ (١)، وهـذا هـو فـى الـواقـع الـهـدف الأكـبـر مـن الحـيـاة الرهبانيـة، فـهـى لـيست هربـا مـن الخطيئـة، ولا تـخلصـا مـن مسئوليات الحياة، وإنما هـى تدريـب متواصـل علـى التجرد التام، من كل شـيء من أجل الله، أو هـى الإنـحلال من الكل للاتحاد بالواحد.

(١) غلاطية ٢ : ٢٠ .

٢- فهرس الموضوعات

صفحة